أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة

قبل الحديث عن أثر الوقف في نشر التعليم والثقافة نقول: مجالات الوقف لا تنحصر في دائرة محددة، فقد شمل الوقف الإسلامي الكثير من الأنشطة، مثل الوقف على الخدمات الاجتماعية، التي تحتاج إليها مختلف فئات المجتمع ومنها:

وقف لختان الأولاد اليتامى بالقيروان، أقامه إسماعيل بن القائم بأمر الله الفاطمي.

وقف لرعاية الغرباء، في دمشق، أقامه أهل دمشق.

وقف لتزويج الفقيرات، والمكفوفين، والمعوزين، وذكر ابن بطوطة أنه رآى بالشام وقفا، لتزويج البنات الفقيرات، اللواتي لا قدرة لأهلهن على تزويجهن، كما رآى وقفا مماثلا لذلك في تونس وفي فاس بالمغرب، كان هناك دار لتزويج المكفوفين، الذين لا يملكون سكنا لإقامة مراسم العرس، كما رآى بفاس دارا أخرى فخمة لهذا الغرض.

وقف للقرض المالي بدون فائدة، وهي مبرة في قيسارية فاس، وضع فيها ألف أوقية من الذهب، للمحتاجين إلى القرض الحسن، وعملت حتى وقت متأخر عام ١٢٩٩هـ.

وقف في مصر والشام ماء السبيل، بين الحارات لشرب الناس، وعمل الآبار في المفازات للمسافرين، كما وقفت الأوقاف لرصد الطرق، وتعديلها، وبناء الجسور وغير ذلك.[1]

مراكز التعليم والثقافة:

تعتبر مراكز التعليم، وعلى رأسها المساجد، والمدارس، والمكتبات، من أهم الأمور التي كانت ترصد لها الأوقاف، وسأتكلم في هذا البحث، عن بعض العناية بهذه المراكز ؛ وفي بعض المواضع ؛ لأن استقصاء ذلك لا يتحمله هذا البحث الموجز؛ لذا فإنني سأعطي لمحة معبرة عن اهتمام المسلمين بهذه الناحية، فأقول:

---

(١) انظر أثر الوقف في الجانب التوجيهي للمجتمعات، أ. د. صالح بن غانم السدلان ص.٣٢-٣٣.

المساجد:

المسجد: هو المركز الأول للإشعاع الروحي والعلمي، لأنه مكان العبادة والتعليم، وموطن التذكر والتفكر والتوحيه، و لم تكن رسالة المسجد في الإسلام مقصورة على الناحية الدينية وحدها، بل كلنت المساجد - ولا تزال - مفتحة الأبواب، لا يرد عنها طالب علم، أو قاصد ثقافة،

ففي مسجد رسول الله ﷺ أقام فقراء المهاجرين، وفيه استقبل رسول الله ﷺ الوفود، ومنه انطلقت البعوث، وأرسلت الجيوش، وهو محل تشاور المسلمين وتناصحهم، ومقر القضاء، ومركز القيادة العسكرية، ودار الضيافة،

لقد كان مسجد رسول الله ﷺ في المدينة، هو الجامعة الأولى، التي ربى فيها رسول الله ﷺ أصحابه على يديه خير تربية، حتى فقهوا في دين الله تعالى، فكان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون على هذه الجامعة، فيصيبون فيها علما وهدى، وفضائل وأدبا، حتى أن عمر بن الخطاب ﷺ كان يتناوب هو وجاره، زيارة مسجد رسول الله ﷺ فكان إذا ذهب عمر للمسجد، أخبر جاره بما جرى فيه، طيلة ذلك اليوم، وإذا ذهب جاره إلى المسجد، أخبر عمر بما جرى طيلة ذلك اليوم أيضا، وقد ترجم البخاري لذلك بقوله (باب التناوب في العلم)[1] والهدف من ذلك، هو حضور حلقات الدرس التي كان رسول الله ﷺ يعقدها في مسجده،

وقد كان المسجد مدرسة لصنع الرجال، وتخريج الأبطال، لقد تخرج من المسجد النبوي، أمثال أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسعد بن أبي وقاص، والزبير ابن العوام، وخالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، هؤلاء وأمثالهم، هم الذين فتحوا الدنيا بأخلاقهم وعدلهم، وتمسكهم بأهداب الدين، قبل أن يفتحوها بسيوفهم ورماحهم، فكانوا بحق أساتذة العالم وملوك الدنيا، كما تخرج من المسجد أيضا، العلماء الجهابذة، والفقهاء، والمحدثون: من أمثال عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، والأئمة الأربعة،والبخاري، ومسلم وأمثالهم، فكان هؤلاء مصابيح الهدى، وشموس العلم والمعرفة،

وفي مسجد رسول الله ﷺ تألق الإمام مالك بن أنس، وفي مسجد الكوفة وبغداد تألق الإمام أبو

---

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ١/ ٣١

حنيفة النعمان، ومن جامع الفسطاط بمصر تألق محمد بن إدريس الشافعي، وفي بغداد تألق شيخ السنة الإمام محمد بن حنبل، ورجال الحديث، وعلماء اللغة والأدب،[1]

لقد قام صحابة رسول الله ﷺ بعده بتعليم الناس وتفقيههم في الدين، وكانوا يحضرون المساجد، ويلتف المسلمون حولهم، يجيبون عن الأسئلة الموجهة إليهم بما، فهموه عن رسول الله ﷺ

وقد سار التابعون على نهج الصحابة ﷺ، فكانوا يجلسون في المساجد، يعظون الناس، ويعلمونهم أمور دينهم: منهم سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وسالم مولى عبد الله بن عمر، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وربيعة الرأي، شيخ الإمام مالك بن أنس وغيرهم .

لكل ذلك فقد عني المسلمون بأمر المساجد، منذ فجر الإسلام، وأولوها رعايتهم وعنايتهم ؛لأن لها أثرا جليلا في توجيه المجتمع، في مجالات السياسة، والثقافة والتعليم، والتربية، والاقتصاد، وغيرها.

لهذا فقد نال الوقف على إنشاء المساجد وصيانتها، والإنفاق على القائمين عليها، من الأئمة، والوعاظ، والعلماء اهتمام المسلمين وعنايتهم، فلم تكن المساجد - في كل البلاد الإسلامية - إلا مساجد وقفية، ثم إن خدمتها وصيانتها، كانت مما حبس عليها من الأموال الوفيرة ؛ لتأدية وظائفها المتعددة، فكانت المساجد إلى جانب هدفها الأساسي - وهو إقامة العبادة لله - كانت مراكز لاجتماع الأمة، وأمكنة للتقاضي وفض المنازعات[2]، واستخدمت قبل إنشاء الدواوين الحكومية والوزارات المتخصصة أماكن لتصريف أمور الدولة،

وأكثر ما استخدمت المساجد له - إلى جانب العبادة - هو أنها صارت مراكز للتعليم، فكان الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - أول من استخدم مسجده مكانا للدعوة، والتعليم، والإرشاد، وترسم صحابته من بعده خطاه، فاستمرت حلقات العلم في مسجده ﷺ بالمدينة المنورة، والمسجد الحرام بمكة المكرمة.

وبمرور الزمن ازدهرت المساجد، وخاصة الكبرى منها، وكلها كانت مراكز علمية، عكف فيها الطلاب لتلقي العلوم الشرعية، والعلمية، وعلوم اللغة، لكل هذا عني بها أهل الخير، ووقفوا الأموال

---

(١) رسالة المسجد في الإسلام د/ عبد العزيز محمد الليلم ص.١٠٦- -١٠٨ بتصرف

(٢) ثم جعل القضاء خارج المسجد لما يكون بين المتخاصمين من لجاج. كما أخرج المؤدبون من المسجد تنزيها له من عبث الأطفال.

الطائلة على إنشائها وصيانتها، وعلى القائمين عليها من علماء، وقراء، ووعاظ، وعـــاملين، وطـــلاب علم، ومهما تكلمنا عن المساجد وعمارتها فلا نكاد نوفي شيئا من حقها، لكننا نعطي لمحة مختصرة عـــن تلكم المساجد فنقول:.

أبرز مساجد الأمصار الإسلامية، وأعظمها أثرا في النواحي العلمية.

مساجد العراق، والشام، ومساجد مصر، ومساجد المغرب.

أولا: في العراق:

مسجد البصرة: يعد مسجد البصرة، أول مسجد أنشئ بعد الفتوحات الإسلامية ؛ لأن البصـــــرة كانت أول مدينة أحدثت في الإسلام - خارج الجزيرة العربية - سنة١٤هـــ قام هذا المســـجد بـــدور بارز في النهضة العلمية والأدبية في العصر الأموي، ففيه جلس الكثير من الفقـــهاء والأدبـــاء، يلقـــون دروسهم، ومن أشهرهم الإمام الحسن البصري، وكانت حلقته تضم العديد من القراء، كمـــا كـــان الشعراء والأدباء، يتخذون من هذا المسجد مركزا لرواية الشعر والأدب، وفيه ظهرت طائفة البـــاحثين اللغويين، كما كان مقر العالم (الخليل بن أحمد الفراهيدي) الذي يعد أول من صنف في اللغة، كما هـــو أول من وضع علم العروض، والذي تخرج على يديه العلماء الكبار أمثال سيبويه.[1]

مسجد الكوفة: تعتبر الكوفة ثاني مدينة أحدثت في الإسلام -بعد البصرة- إذ يعود إنشـــاؤها إلى سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي تحول إليها من المدائن، وأول ما أنشئ فيها المسجد اختطه ســـعد ســـنة ١٧هـــ.

وقد اصبح هذا المسجد مركزا كبيرا من مراكز الفقه، ففيه ظهرت بوادر مبادئ الفقه المبني علـــى التجرد، واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة، فقد جلس فيه علي بن أبي طالب ﷺ، يلقـــن النـــاس أصول الدين، كما جلس فيه عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن حبيب السلمي، لتدريس القرآن الكريم، كما ظهرت في هذا المسجد مدرسة للتفسير، اشتهر من معلميها: سعيد بن جبير، وعلي بـــن حمـــزة الكسائي[2].

---

(١) محاضرات الأدباء للأصبهاني ٢٠/١ وانظر المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي د/علي عبد الحليم محمود ص٣٩.

(٢) رسالة المسجد في الإسلام د/ عبد العزيز الليميلم ص. ١٩١- ١٩٣

جامع المنصور: ببغداد أسسه أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥هـ وجعل موضع الجامع وسط المدينة، التي جعلها مدورة، كما جعله ملاصقا لقصره المسمى بقصر الذهب، وقد أصبح هذا المسجد، من أشهر مراكز التعليم في الدولة الإسلامية، في عهد الخلافة العباسية، وقبلة أنظار الأساتذة والطلبة في ذلك العهد[١].

ثانيا: في الشام:

المسجد الأقصى: هو واحد من المساجد الإسلامية الكبرى، التي كان لها الدور الريادي، في جوانب متعددة: التعليمي منها، والسياسي، والاجتماعي، إذ أصبح في يوم من الأيام بمثابة جامعة إسلامية، كان المسجد الأقصى مظهرا حضاريا وفكريا من مظاهر التمدن الإسلامي، وكان يقوم بدوره في الحفاظ على التراث الإسلامي، وخدمة الثقافة الإسلامية ورعايتها.

لقد كان المسجد الأقصى -بما قام فيه وفي ساحاته، ومن حوله من مؤسسات علمية، ومدراس، ومكتبات، ودور قرآن، ودور حديث، وزوايا، وخوانق، ورباطات- كان عبارة عن معاهد علمية، أو كليات، أو جامعة تعقد فيها الحلقات العلمية، وتدرس العلوم الشرعية، والعربية، والتأريخ، وعلم الكلام، والمنطق، والعلوم الرياضية وغيرها.

كما أنشئت العديد من المدارس بداخل المسجد الأقصى ومنها: المدرسة النحوية، والمدرسة النصرية، والمدرسة الفارسية، وكلها بداخله[٢].

الجامع الأموي بدمشق: أنشأ هذا الجامع الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بين عامي ٨٨-٩٦هـ حيث استقدم له الصناع، والعمال المهرة من شتى أنحاء الدولة الإسلامية... فأصبح هذا الجامع مركزا مهما من مراكز الثقافة، في العالم الإسلامي، إذ اشتمل على حلقات للتدريس، يقوم بها العلماء والفقهاء ؛ لتدريس الطلبة مختلف العلوم، كما يوجد فيه مساكن للطلبة الغرباء، بالإضافة إلى زوايا عدة، كانت في المسجد، يتخذها الطلبة للنسخ والانفراد.

يقول ابن جبير عن هذا الجامع: وفي هذا الجامع المبارك، مجتمع عظيم، كل يوم، إثر صلاة الصبح،

---

(١) الأخبار الطوال للدينوري ص. ٣٨٣. باختصار

(٢) الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى ص. ٩١-٩٤. باختصار.

لقراءة سبع من القرآن دائما، ومثله إثر صلاة العصر، وفيه حلقات للتدريس، للطلبة وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيه الطلبة المغاربة، ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما يحدث به أن سارية من سواريه، هي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس.[1]

ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم: فالمحدثون يقرؤون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحا ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله، يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد، يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح - تنزيها لكتاب الله تعالى - وإنما يقرءون القرآن تلقينا، ومعلم الخط غير معلم القرآن.

وقد جعل في كل ركن من أركان المسجد الأربعة، مشهدا اتخذ كل منها على أسماء الخلفاء الأربعة: فالشرقي بقبله مشهد على اسم أبي بكر، وبه عدة كتب، وخزائن وقف، وشاميه مشهد على اسم علي، والغربي بقبله مشهد على اسم عمر، وبه شيخ حديث، وجماعة من العلماء يستمعون الحديث بوقت مستقل، وعدة خزائن وكتب وقف، وشاميه مشهد على اسم عثمان، وبهذا المشهد تعقد مجالس الحكام الأربعة والعلماء، لفصل القضايا المعضلة، التي لا ينفرد بها حاكم، فيجتمعون بأمر نائب السلطان، وينظرون في تلك الحكومة، ويحكمون فيها بأجمعهم،

وهذا المسجد معمور بالناس كل النهار وطرفي الليل، لأنه ممر البيوت والمدارس والأسواق، وفيه ما ليس في غيره من كثرة الأئمة، والقراء، ومشايخ العلم والإقراء، ووجوه أهل التصدير والإفتاء، ووظائف الحديث، وقراء الأسباع، والمجاورين من أهل الصلاح، فلا تزال أوقاته معمورة بالخير، آهلة بالعبادة، قل أن يخلو طرفة عين في ليل أو نهار، من مصل، أو جالس في ناحية منه للاعتكاف، أو مرتل للقرآن، أو رافع عقيرته بأذان، أو مكرر في كتاب علم، أو سائل عن دين، أو باحث في معتقد، أو مقرر لمذهب، أو طالب لحل مشكلة من سائل ومسئول، ومفت ومستفت، هذا إلى من يأتي هذا المسجد مستأنسا لحديث، أو مرتقبا لقاء أخ، أو متفرجا في فضاء صحنه[2].

هذا و لم يقتصر التعليم في هذا المسجد على أبناء المسلمين فقط، وإنما تعدى ذلك إلى انخراط العديد

---

(١) رحلة ابن جبير ص. ٢٤٤-٢٤٥. رحلة ابن بطوطة ص. ٨٨-٨٩.

(٢) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ص. ٢٠٢-٢٠٣

من أبناء أوربا وغيرها، إلى الدراسة في هذا المسجد، على أيدي علمائه، فهناك الكثيرون من علماء الدولة البيزنطية، تلاميذ لشيوخ جامع دمشق الأموي، وقد كشفت عن ذلك، الدراسات الخاصة بمشكلة إنكار عبادة التصاوير، فقد تبين أن الذين قادوا الحركة، وأنكروا على المسيحيين تقديس التماثيل والصور، والصلاة إليها، كانوا قد درسوا في الشام في المسجد الأموي، واقتنعوا بأن عبادة التصاوير - على النحو الذي كان جاريا في الدولة البيزنطية - وثنية تشوب العبادة، وكانت الحجج التي ناقشوا بها خصومهم، مأخوذة من كتب المسلمين بلا جدال.

وكان (ليون بن قسطنطين) الذي أنشأ الدولة الأيسورية -وهي من أقوى الدول في تاريخ الروم- قد تعلم قبل أن يصل إلى العرش في دمشق.

ومن أبرز العلماء الذين درسوا في هذا المسجد الخطيب البغدادي، الذي كان يدرس فيه الحديث، والغزالي الذي أكمل كتابه إحياء علوم الدين في هذا المسجد، هذا وكان دور المسجد بارزا في حركة الجهاد في سبيل الله ضد الصليبيين وضد المغول.[1] وأخيرا ضد اليهود.

ثالثا: مساجد مصر: جامع الفسطاط - الجامع الطولوني - الجامع الأزهر:

جامع عمرو بن العاص في الفسطاس: فتح عمرو بن العاص مصر، وأسس مدينة الفسطاس، وبنى فيها مسجدا سنة ٢١هـ سمي باسمه، وكان يسمى بالمسجد العتيق، وتاج الجوامع، ويعتبر رابع مسجد أقيم في الإسلام بعد مساجد: المدينة المنورة، والكوفة، والبصرة، كما يعتبر أول مسجد أسس بمصر بعد الفتح الإسلامي[2].

جعل المسلمون من هذا المسجد، معهدا علميا كبيرا، كانت منه نواة علمية كبرى، ليس في مصر وحدها، بل في مدن أخرى كثيرة، ومنذ ذلك الحين، أخذ هذا الجامع يخطو خطوات واسعة، في نشر مبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه القويمة، ولهذا فقد أصبح مركزا علميا مهما؛ لنشر الحضارة العربية والإسلامية وإشعاعها، كما كان مركزا للحكم في الخصومات.

ومن أشهر العلماء الذين أفادوا العالم الإسلامي بعلمهم وتأليفهم:عبد الله بن عمرو بن العاص،

---

(١) الجامع الأموي في دمشق ص. ٢١.

(٢) الخطط المقريزية ٣/ ١٠٧.

الذي يعتبر بحق أول من جلس للتدريس في هذا المسجد، فكانت له حلقة يدرس فيها العدد الكبير من طلبة الحديث متنا وشرحا، وحلقة أخرى يدرس فيها طلبة اللغة السريانية، وقد وضع في هذا المسجد كتابا في الحديث، سماه (الصادقة)، وألف كتابه الآخر (أقضية الرسول ﷺ) وكتابه (أشراط الساعة).

وبهذا فعبد الله بن عمرو بن العاص أول فقيه ومعلم بمصر.

وممن اشتهر بالتدريس في هذا المسجد، الإمام الشافعي ﷺ الذي قدم إلى مصر عام ١٩٩أو ٢٠١هـ، حيث كانت له حلقة في المسجد، كانت أول مدرسة لتدريس الفقه، وقد ذاعت شهرة الشافعي فألف كتابه (الأم) في هذا المسجد، ومن كتبه السنن في الحديث، وكان يجلس للدرس بعد صلاة الصبح، فيبدأ بتدريس الحديث، ثم الفقه، ثم اللغة.

قال ابن بطوطة "وبشرق المسجد تقع الزاوية حيث كان يدرس الإمام الشافعي[1] وبقي على الدرس حتى مرض مرضه الأخير وتوفي سنة ٢٠٤هـ.

وممن درس في هذا المسجد، الإمام محمد بن جرير الطبري، حيث وصل إلى الفسطاس عام (٢٥٣هـ) وهوالمفسر، والمحدث، والفقيه، والمؤرخ، كما درس في هذا المسجد اللغة والشعر، وأملى شعر الطرماح في هذا المسجد.

كما جلس للتدريس في هذا المسجد (عبد الله بن وهب) الإمام المشهور وأبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة المصري، وكذلك القاضي إسماعيل بن اليسع الكوفي، الذي رحل من العراق إلى مصر، ودرس في هذا المسجد الفقه الحنفي، وهو أول من أدخل هذا الفقه إلى هناك.

وهناك حلقات للوعظ والإرشاد، وممن اشتهر بالوعظ في هذا المسجد، الإمام الليث بن سعد، الفقيه المشهور.

وفي هذا المسجد سبع زوايا للتدريس، خصصت كل زاوية لتدريس علم من العلوم، ويدرس فيها إمام من الأئمة[2]

وفي المسجد حلقات درس دائمة، وقراء كثيرون، وذلك المسجد من معالم مصر البارزة، ولا يوجد

---

(١) رحلة ابن بطوطة ص. ٣٧.

(٢) الخطط المقريزية ٣/ ١٢٥وكتاب الانتصار لابن دقماق ص. ١٠٠.

أقل من خمسة آلاف شخص في المسجد، في أي وقت من أوقات الليل والنهار، فساحات المسجد لا تخلو من طلاب العلم، والغرباء، والكتبة الذين يكتبون للناس الصكوك والقبالات[1].

و لم يقتصر التدريس فيه على الرجال، بل كان للنساء نصيب من التدريس في مسجد الفسطاط، لعل من أشهرهن السيد نفيسة بنت الحسن، التي كانت تعلم النساء وتعظهن. وكذلك السيدة فاطمة بنت عفان بن عثمان البغدادية، حيث جعلت من زاويتها رباطا ؛ لوعظ النساء وتعليمهن.

لقد كان يدرس في هذا المسجد سائر العلوم: من طب، وفلك، ورياضة، وهندسة، جنبا إلى جنب، مع التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، وبذلك يعد مسجد الفسطاط، من أكبر الجامعات التي نراها في وقتنا الحاضر، ومن هنا فقد أدى هذا المسجد رسالته خير أداء ومن هنا ايضا اعتنى به الخلفاء عناية فائقة.

الجامع الطولوني: انتهى أحمد بن طولون المتوفى سنة (٢٧٠هـ) من بناء مدينة القطائع في مصر، سنة ٢٦٥هـ. وبدأ ببناء المسجد عام ٢٦٣ وانتهى منه عام ٢٦٥هـ وهذا التأريخ مثبت على لوح في المسجد، وهذا هو أول تذكار من نوعه عرفته المساجد الإسلامية[2].

ويعد جامع ابن طولون من أكبر مساجد العالم الإسلامي، إذ تبلغ مساحته مع الزيادة ٢٦،٢٤٤مترا مربعا[3].

وقد عمد ابن طولون، إلى أن يجعل من هذا المسجد، جامعة علمية، تضارع جامعة الفسطاط، حيث نقل إليها: القراء، والفقهاء، والطلبة،وعين له القاضي بكار بن قتيبة إماما وخطيبا، ومدرسا للفقه، وجعل الربيع بن سليمان -تلميذ الشافعي- مدرسا للحديث، ومع كل واحد منهما وراق وكتبة، يكتبون ما يلقى من الدروس.

ويروي السيوطي: أن دروسا مختلفة رتبت في الجامع الطولوني، إذ شملت التفسير، والحديث، والفقه

---

(١) رحلة ناصرخسرو (سفر نامة) ص. ١٠٦.
والقبالة: قال الزمخشري: كل من تقبل بشيء مقاطعة وكتب عليه بذلك كتابا فالكتاب الذي يكتب هو القبالة، بالفتح، والعمل قبالة بالكسر؛ لأنه صناعة. المصباح المنير للفيومي١٤٦/٢ مادة قبل.

(٢) بيوت الله لمأمون غريب ص. ١٧٩-١٨٠.

(٣) المدخل إلى الآثار الإسلامية ص. ١٤٢.مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ص. ١٠٦.

على المذاهب الأربعة، والقراءات، والطب، والميقات، وقد جعل ابن طولون في مؤخرة المسجد، دار شفاء ألحق بها صيدلية، أعد فيها من الأدوية، وأنواع الشراب، ما يلزم لإسعاف من يحدث له حادث من المصلين، خصوصا يوم الجمعة، ورتب لهذه الصيدلية خدمها، وعين لها طبيبا، وألزمه بالتواجد يوم الجمعة استعدادا للطوارئ[1] وقد أصبحت هذه الدار فيما بعد، مثابة لمئات الطلبة، الذين يتلقون بها دروسا في الطب والعلاج، ويتردد عليها الأطباء، حيث ألقت مباحثهم الطبية على أطباء الغرب ضوء كبيرا[2].

الجامع الأزهر: إذا كان جامع عمرو بن العاص أول جامع أسس في الفسطاط، فإن الجامع الأزهر أول جامع أسس في القاهرة، ولكل من الإثنين زعامته ورسالته العلمية[3] ففي سنة٣٥٩هـ تم على يد جوهر الصقلي - قائد جيش المعز لدين الله الفاطمي - ضم مصر إلى الحكم الفاطمي، بعد الإطاحة بإمارة الإخشيديين، حيث اختط مدينة القاهرة المعزية، وأسس بها أول جامع لهم، هو الجامع الأزهر، حيث بدأ بناءه سنة ٣٥٩ وانتهى منه في رمضان سنة ٣٦١هـ[4].

وقد سماه الفاطميون بالأزهر، تيمنا باسم فاطمة الزهراء ﷺ حيث يتبع الفاطميون المذهب الشيعي الإسماعيلي، وأراد هؤلاء أن يجعلوا منه معهدا علميا، تدرس فيه الدعوة الإسماعيلية وشتى العلوم والمعارف، حيث أنشئوا فيه أقساما للدراسة، ومساكن للطلبة، وخصصوا من بيت المال مبلغا للصرف عليه، لدوام استمرار التعليم فيه، ففي سنة ٣٦٥هـ جلس كبير القضاة علي بن النعمان القيرواني بالأزهر، وقرأ مختصر أبيه في فقه الشيعة، ويسمى (الاقتصار) فكانت هذه أول حلقة للتدريس، تعقد في الجامع الأزهر[5] وبعد أن نطوي البحث عما كان يدرس فيه الشيعة الإسماعيليون نقول:

الأزهر بعد الفاطميين: هو الجامعة الإسلامية الكبرى، به زال الجهل في عصور انتشرت فيها الجهالة، فصارت حياة العلم خالدة، فكثيرا ما بزغت فيه شموس وأقمار، وغردت فيه بلابل المتعلمين والمعلمين في العشي والإبكار، وقد كان لكل مذهب من المذاهب الأربعة، أعمدة معينة، لا يجلس

---

(١) حسن المحاضرة ١٣٨/٢.

(٢) الإسلام في حضارته ونظمه لأنور الرفاعي ص. ٣٩٠ - ٣٩١.

(٣) مساجد مصر سعاد ماهر ص. ١٩٤.

(٤) الخطط المقريزية ١٥٧/٣.

(٥) مجلة الرسالة محمد عبد الله عنان العدد ١٣٦ ذو القعدة سنة ١٣٥٤هـ تأريخ الجامع الأزهر ص.٤١و٦٦

للتدريس بجانبها غيرهم، وكان الطالب حرا في اختيار أستاذه، واختيار الحلقة التي يريدها، إلى جانب اعتماده على نفسه في إعداد دروسه.

وقد درس في هذا الجامع، فطاحل وعمالقة العلماء، في كل فن، وكان من أشهر هؤلاء، ابن خلدون الذي عمل أيضا قاضيا، بعد رجوعه من المغرب.

كما جلس للتدريس بهذا الجامع، كل من السيوطي، والمقريزي، والقلقشندي، كما تولى تدريس الحديث فيه المقري.

وزادت أهمية الأزهر في القرن التاسع، حيث حفلت مصر بجمهرة من أعظم العلماء والكتاب، بلغ الأزهر فيها عصر الذروة: من أمثال الحافظ ابن حجر العسقلاني، وأبي العباس القلقشندي، صاحب موسوعة صبح الأعشى، والمقريزي صاحب الخطط، وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة، والسخاوي صاحب الضوء اللامع، وجلال الدين السيوطي صاحب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وقد كلن يدرس فيه معظم العلوم، كما أن أرباب الأموال كانوا يقصدون هذا الجامع بألنواع البر: من الذهب والفضة إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله ﷻ، وتحمل إليهم أنواع الأطعمة والخبز والحلاوات لا سيما في المواسم[1].

وعلى الإجمال فإن الأزهر قد قام بدور قيادي، لا في تأريخ مصر فحسب، بل في تاريخ الأمة العربية والإسلامية على مر العصور.

وهناك مساجد أخرى بنيت في مصر، من ذلك:

مسجد العسكر الذي بناه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، لما قدم في طلب مروان الحمار سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فكان يصلى فيه الجمعة وفي مسجد عمرو بن العاص[2]،

وجامع الحاكم، أول من أسسه العزيز بالله بن المعز وخطب فيه، ثم أكمله الحاكم بأمر الله سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وحبس عليه الحاكم عدة قياسر[3] وأملاك بباب الفتوح[4]، وبنى الحاكم بأمر

---

(١) الخطط المقريزية ٣/ ١٦٣.

(٢) حسن المحضرة في تأريخ مصر والقاهرة ٢/ ٢٣٧.

(٣) في القاموس المحيط للفيروزآبادي ٢/ ١١٦: القيسري من الإبل العظيم جمعه قياسر وقياسرة.

(٤) حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة ٢/ ٢٥٣.

الله جامع راشدة بجوار رباط الآثار[1]، ومن بناء الحاكم أيضا الجامع الذي بالمقس على شاطئ النيل، ووقف عليه أوقافا[2]، ومن ذلك الجامع الأقمر بناه الآمر بأحكام الله، والجامع الأفخر وهو الذي يقال له اليوم جامع الفكاهيين، بناه الخليفة الظافر[3]، وجامع الصالح خارج باب زويلة بناه الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز[4].

مساجد المغرب

في تونس: جامع القيروان - جامع الزيتونة.

في المغرب: جامع القرويين.

جامع القرويين بتونس:

تعتبر القيروان رابع مدينة أحدثت في الإسلام، بعد البصرة، والكوفة، والفسطاط، أسسها القائد عقبة بن نافع الفهري، أبرز قادة الفتح الإسلامي، وذلك عندما عينه الخليفة الأموي، معاوية بن أبي سفيان ﷺ واليا على أفريقية سنة ٥٠هـ، نتيجة لخبرته الطويلة في تلك البلاد[5].

لقد كان هذا المسجد منارة العلم في المغرب الإسلامي قاطبة، حيث تخرج فيه من العلماء، من يفخر بهم العالم العربي والإسلامي على مر العصور، ولعل أبرز شاهد على ذلك، هو أن شيوخ القيروان، ممن تلقوا علومهم في هذا المسجد، هم الذين جعلوا من مسجد القرويين بفاس، جامعة كبرى، على إثر نزوحهم من القيروان، فهم الذين أسسوا جامع القرويين، وأعطوه اسمه، وعمروه بالعلم وحلقات الدرس، ذلك أن كلمة القرويين تعني القيروانيين، في نظر العديد من العلماء والمؤرخين[6].

وكان من العلماء الذين نشروا علمهم في هذا الجامع كل من: علي بن زياد، تلميذ الإمام

---

(١) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٤.

(٤) المصدر نفسه ٣/ ٢٥٤.

(٥) تأريخ خليفة بن خياط ص. ٢١٠.

(٦) المساجد / حسين مؤنس ص.١٧١.

مالك ﷺ، وأسد بن الفرات، الذي قدم المدينة، فأقام بها عشرين سنة، تلميذاً للإمام مالك ؛ ليأخذ المذهب المالكي، ثم ذهب إلى العراق، ليأخذ مذهب الفقه الحنفي عن أبي ويسف، تلميذ أبي حنيفة، كما أن الإمام سحنون، فعل نفس الفعل، ليعود ليلقي دروسه في جامع القيراون، وهؤلاء العلماء ليسوا سوى قطرة من بحر، ونماذج لغيرهم في نشر الإسلام في المغرب العربي.

هذا هو جامع القيروان، الذي مازال معقلاً من معاقل الإسلام، في الشمال الأفريقي، والذي يعتبر الفضل الأكبر لعلمائه في نشر الدين الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، وفي ذلك الوقت، كان هذا المسجد موئلاً للعديد من رواد العلم والمعرفة، ومنطلقاً للجهاد في سبيل الله، إلى العديد من الأقطار الأخرى التي كان له فضل إدخالها في الإسلام.

جامع الزيتونة بتونس:

يعود تأريخ بناء هذا المسجد إلى حسان بن النعمان الغساني، أحد قادة فتح بلاد المغرب، ومؤسس تونس، وكان أول عمل قام به حسان، هو تخطيط المسجد الجامع الذي جعله وسط المدينة، وهذا هو المنهج الذي سار عليه المسلمون، منذ هجرة النبي ﷺ إلى يثرب[1]، ظل جامع الزيتونة بتونس كعبة القصاد، ونهاية مطاف رواد المعرفة، من مغاربة وأندلسيين نازحين، وبجانبه مدارس علم، تخرج فيها أكابر العلماء، وعظام الأدباء[2] جامع الزيتونة هو أسبق المعاهد التعليمية، وقد حمل مشعل الثقافة العربية اثني عشر قرناً، بلا انقطاع، ولا انفصال، تجرد من خلالها لدراسة العلوم منذ سنة ١٢٠هـ وظل على مر العصور، مناراً وهاجاً للتعليم، والبحث، والاستنباط، فتخرج فيه الفقيه، واللغوي، والأديب، وأصبح أكبر جامعة إسلامية، عرفها المغرب بأسره، وتفرع من دوحة الزيتونة، أغصان علم ومعرفة، زانوا الثقافة البشرية، في المشرق والمغرب[3]، وقد أصبح هذا المسجد فيما بعد، جامعة للدراسات العربية والإسلامية، حيث قام بدور كبير في خدمة الفكر الإسلامي، لا في تونس وحدها، بل في شمال الصحراء وجنوبها[4].

---

(١) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس /لابن أبي دينار ص. ١٠.
(٢) حول مدينة تونس العتيقة / سليمان مصطفى زبيس ص. ٢٩.
(٣) موسوعة التأريخ الإسلامي / د/ أحمد شلبي ٦/ ١٧٥٧.
(٤) تأريخ جامع الزيتونة / محمد عثمان الحشائشي ص. ٥.

وممن أسهم في التدريس في جامع الزيتونة: أبو محمد/ خالد بن أبي عمران التجيبي، الذي سمع من القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ﷺ، ومن سالم بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب، وكذا أبو الحسن/ علي بن زياد العبسي التونسي (المتوفى سنة (١٨٣هـ) تلميذ مالك بن أنس، والليث بن سعد، وشيخ البهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، والإمام سحنون، وكذلك أبو مسعود/ عبد الرحيم بن أشرس، وأبو خليل/ هشام بن خليل، وأبو البشر/ زيد بن بشر الأزدي، وغيرهم كثير، فوجود هذا العدد الكبير من العلماء؛ يوحي بكثافة النشاط العلمي والتدريسي الذي احتواه الجامع الأعظم، وجمع كل هؤلاء العلماء[١].

وكان أمراء العهد الحفصي، ينتدبون العلماء لمدارسهم، من بين مشاهير علماء جامع الزيتونة، وبذلك تكتسب المدرسة مكانة، وتعج بطلاب العلوم المختلفة[٢].

وقد اشتهر جامع الزيتونة بوجود مكتبة، احتوت على العديد من الكتب، وقفت على الطلبة يقرؤونها، وينسخون منها، وعين لها متخصصون لمناولة الكتب، وإرجاعها إلى أمكنتها، كما أسند الإشراف عليها إلى إمام جامع الزيتونة، استمر جامع الزيتونة على هذا المنوال، يؤدي دوره الريادي، حتى صدر مرسوم في ١٩٣٣هـ اعتبر فيه جامعة، سميت بجامعة الزيتونة، وسمي شيخه مديرا، وجعلت الدراسة فيه على ثلاث مراحل:

١- الإعدادية: وتنتهي بشهادة الأهلية.

٢- المتوسطة: وتنتهي بشهادة التأهيل.

٣- العالية: وتنتهي بشهادة العالمية، مع التخصص في القراءات، وعلوم الشريعة الإسلامية، والآداب، ثم أضيف إلى منهجه بعض المواد العصرية، واللغات الأجنبية، وخصوصا بعد استقلال تونس![٣].

ونكتفي بهذا القدر عن الكلام عن المساجد لنلتفت إلى المدارس فنقول:

المدارس:

"وفي مجال الإيقاف على المدارس والطلبة، فإن المساجد -كما رأينا- كانت جامعات كبرى؛

---

(١) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي / الطاهر المعموري ص.٤٩-٥٠.

(٢) نفس المصدر ص.٥٢.

(٣) تأريخ جامع الزيتونة / محمد بن عثمان الحشائشي ص. ٣-٤.(قلت) كلما أرادوا إضعاف جامع أنثوه .

لتدريس مختلف العلوم، و لم تكن مقتصرة على تعليم الناس أمور الدين فقط، بل امتدت المخصصات الوقفية، إلى إنشاء مدارس متخصصة، لتدريس الفقه، والطب، والإدارة، وأصبحت المساجد الصغيرة ملحقة بالمدارس.

وشمل التعليم الرجال والنساء، وحتى المماليك، والعبيد، والإماء، والأيتام، واللقطاء، وانتشرت المعرفة بين البوابين والفراشين، لأن شروط الوقفيات سهلت لهم ذلك، ولذا تجد أن البعض من هؤلاء، قد بلغ الذروة في العلم، وأصبح من كبار العلماء، كل ذلك بسبب أن أموال الوقف، كانت تسمح لهم بالعمل والدراسة فيها، وأصبح هؤلاء يمنحون بأنفسهم الشهادات والإجازات لغيرهم، مثل سعد الجبريلي، وكذا ابن الدبيثي (محمد سعيد المتوفى سنة (٦٣٧هـ)، والمنذري، وأحمد بن أبي بكر بن علي الذي كتب كتاب تأريخ ابن كثير وأضاف إليه، وكان كثير من الأدباء والفقهاء يدرسون على بواب باب الدوامات -أحد أبواب دارالخلافة وهو أبو الثناء بن أبي السعادات[1]

من هذا تبين: أنه في العصور السابقة، لم يكن هناك مدارس، والذي كان يقوم بمهمتها هو المسجد.

وسأنقل الكلام عن بعض من ساهم في إنشاء المدارس، وهي سيرة وال من ولاة المسلمين، الذين كان لهم اهتمام بالعلم والعلماء، ألا وهو الوزير نظام الملك، الذي قال عنه أبو الوفاء - علي بن عقيل في كتابه الفنون:(أيامه التي شهدناها، تربي على كل أيام سمعنا بها... فأبهرت العقول سيرته، جودا، وكرما، وعدلا: بنى المدارس، ووقف الوقوف، ونعش من العلم وأهله ما كان خاملا مهملا، في أيام من قبله، وكانت سوق العلم في أيامه قائمة، والنعم على أهله دارة).[2]

لقد كانت اهتمامات نظام الملك متعددة، لكن يمكن حصرها في هدفين:

الأول: ضمان مصلحة الخلافة العباسية، والسلطنة السلجوقية على السواء.

والثاني: وهو الأهم، الدفاع عن الفكر والعقيدة الإسلامية ضد أعدائها، مما استلزم اهتمامه بالعلم والعلماء، والتعليم، وإنشاء المدارس، وتركيزه على إخراج أجيال من العلماء، المدافعين عن العقيدة الإسلامية، وفق منظور أهل السنة وعقيدة السلف... وهذا الهدف هو الذي يهمنا هنا.

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف د/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣٤. ضمن بحوث في كتاب إدارة وتثمير ممتلكات الأوقاف، نقلا عن أنساب الأشراف للبلاذي 2/٣٤٥.

(٢) الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي د/ مريزن سعيد مريزن عسيري ص. ١٧٨

امتدت أيام نظام الملك ثلاثين عاما، لم يغفل في ليل أو نهار، وسفر أو حضر عن الإنعام على العلماء، وإرفاد الأفاضل، وخدمة رجال المعرفة، وكان ينفق الكثير من ماله على أهل العلم والأدب، فكان (أهل الدين والعلم والفضائل راتعين في إنعامه، وفي أيامه نشأ للناس أولاد نجباء، وتوفر على تهذيب الأبناء والآباء، وفي عصره نشأت طبقات الكتاب الجياد... ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء... ومن رآى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره، ثم إنه لما وفر الأموال على الخزانة، جعل فيها لأرباب العلوم، وأصحاب الحقوق، حقوقا لا تؤخر، ورسوما لا تغير، وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثا، يأخذونه بقدر الفرائض)[1]

وفي عهد وزارة نظام الملك أنشئت المدارس النظامية، وكان أعظمها وأهمها: نظامية بغداد التي بدئ في بنائها عام (٤٥٧هـ ١٠٦٤م) وافتتحت للدراسة عام (٤٥٩هـ ١٠٦٦م).

يقول السبكي: وبنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال: إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة... وقد أدرت فكري وغلب على ظني أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة اهـ[2].

على أنه كان هناك عدد من الوزراء السلاجقة - غير نظام الملك - من أظهر اهتماما بالعلم والعلماء.

وذكر ابن العماد أنه في سنة ٦٠٦هـ توفي أسعد، ويسمى محمد بن المنجا بن بركات التنوخي المعري، ثم الدمشقي الحنبلي، القاضي وجيه الدين أبا المعالي، وهو واقف الوجيهية، التي برأس باب البريد، وهي مدرسة قريبة من مدرسة الخاتونية الجوانية، وبها خلاو كثيرة ولها وقف كثير اهـ[3].

وابن الآثير مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد الجزري، أنشا رباطا، ووقف أملاكه وداره التي يسكنها عليه[4]

---

(١) الحياة العلمية في العراق للدكتور مريزن ص١٧٥-١٧٧ باختصار نقلا عن تأريخ دولة آل سلجوق ص٥٩-٦٠.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٤/ ٣١٣ - ٣١٤. والمعاليم هو اشيء المعلوم الذي يأخذه الطالب.

(٣) الشذرات لابن العماد ٥/ ١٩.

(٤) الشذرات لابن العماد ٥/ ٢٣.

ويذكر ابن العماد عن مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني، وأنها كانت لها أوقاف، في كلام كثير عند كلامه عن سيرة عبد السلام حفيده[1].

(قلت) وهي إلى الآن فيها المدرسة، وفيها سكن للطلاب، ومعاليم شهرية، وسكن في المسجد الكيلاني ببغداد، وينفق على كل ذلك من الأوقاف التي خصصت للمدرسة.

وبنى الملك العزيز شهاب الدين أتابك بن الملك غازي بن السلطان صلاح الدين الأيوبي مدرسة تحت قلعة حلب.[2].

وأوقف الشجاع محمود الدماغ مدرسة للشافعية والحنفية، داخل باب الفرج، تعرف بالدماغية[3].

وذكر السيوطي الكثير من المدارس في مصر، مثل المدرسة الصلاحية[4]، والمدرسة الكاملية[5]، والمدرسة الصالحية بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل[6]، والمدرسة الظاهرية القديمة بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة إحدى وستين وستمائة[7]، والمدرسة المنصورية بناها كما بنى معها المارستان الملك المنصور قلاوون[8]، والمدرسة الناصرية، ابتدأها العادل كتبغا وأتمها الناصر محمد قلاوون سنة ثلاث وسبعمائة[9]، ومدرسة صرغتمش بناها سنة ست وخمسين وسبعمائة[10]، ومدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بناها سنة ثمان وخمسين وسبعمائة[11].

---

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ٥/٤٥ – ٤٦.
(٢) نفسه ٥/ ٥٦.
(٣) نفسه ٥/ ٦١.
(٤) حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة للسيوطي جلال الدين ٢/ ٢٥٧ – ٢٥٩.
(٥) المصدر نفسه ٣/٢٦٢.
(٦) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٣.
(٧) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٤.
(٨) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٤
(٩) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٥.
(١٠) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٨.
(١١) المصدر نفسه ٣/ ٢٦٩-٢٧٠

خدمات المدارس:

وقد كان يلحق بهذه المدارس أطباء للمعالجة، مع حمامات، لاستخدام الطلبة، مع مستشفى، ومطاعم، ومطابخ لتقديم الطعام، وكانت تعلق ساعة في وسط ساحة المدرسة، ليعرف الطلبة منها الوقت، وليعرفوا منها أوقات إقامة الصلاة، وأوقات المحاضرات، وكانت هناك حدائق تنتشر بين أروقة هذه المدارس،

وفي مدرسة المستنصرية، كانت هناك غرفة، تخص الخليفة، تتوسط المدرسة، حيث يستطيع الخليفة -عند وجوده في المدرسة- الإشراف منها على باقي أقسام هذه المدرسة أو الجامعة[1].

مميزات المدرسين:

ومن الملاحظ أنه في صدر الإسلام، لم يكن المدرسون يتقاضون راتبا لقاء تدريسهم، ولكن بمرور الزمن، وكثرة المدارس، وابتداء إيقاف الأوقاف عليها، كل ذلك جعل للمدرسين رواتب شهرية، وكان رؤساء الكليات في الجامعة، من خيرة علماء المسلمين وأكثرهم سمعة، فاشتهرت مدارس كثيرة، بشهرة من درس فيها، وكان يتسلم هؤلاء العلماء رواتبهم من الأموال الموقوفة، على هذه المدارس، التي يدرسون فيها:

فالإمام النووي، وتقي الدين السبكي، وعماد الدين بن كثير، كانوا ممن يدرسون في دار الحديث بدمشق، أما حجة الإسلام الغزالي، وإمام الحرمين الجويني، والخطيب التبريزي، والفيروزآبادي، وغيرهم، فكانوا أصحاب كراس وعمداء للمدرسة المستنصرية ببغداد، وأما ابن خلدون فكان ممن يدرسون بالأزهر، ثم في المدرسة القمحية، وكان الشيخ نجم الدين الحبوشاني، يدرس في المدرسة الصلاحية، وكلاهما أسسهما صلاح الدين، وأوقف عليهما الوقوف، كما أنه قد خصصت للمدرسين مخصصات انتقال، وللإنفاق على الخيول والبغال، التي تنقلهم بين مراكز سكناهم، ومراكز تدريسهم، كما يجري عليه الأمر في وقتنا الحاضر، في بعض البلاد الإسلامية، كل ذلك من أجل إشعار الأساتذة بالرعاية والعناية، في سبيل تشجيعهم على الإنتاج العلمي، والفقهي، وتنمية قدرات طلبتهم الذين

---

(١) الدور الاجتماعي للوقف، د/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣٥ – ٢٣٦.

يشرفون عليهم[1].

ويقارن أحد المستشرقين الفرنسيين، بين طريقتين في البحث، عند العرب وعند الغرب فيقول: إن من أهم ما اتصفت به جامعة بغداد - منذ البداية - هو روحها العلمية الصحيحة، التي سادت فيها، فقد بحث علماؤها في استخراج المجهول من العلوم، والعلل من المعلولات، وفي عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والرصد... وقد كان العرب - في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) - يتقنون هذه الأساليب العلمية، وهذا هو المنهج المجدي، الذي اقتبسه منهم علماء الغرب، بعد زمن طويل، فكان هو العامل الذي ساعد على الاكتشافات العلمية الحديثة، إذ إن منهاج العرب، قام في البداية على التجربة والرصد، أما في أوربا، فقد سارت على الاقتصار على تكرار رأي المعلم، والفرق بين المنهجين واضح، وقال:

ولا يمكن تقدير قيمة العرب العلمية إلا بإظهار هذا الفرق[2].

المكتبات[3]:

يعد الكتاب المرجع الثاني لطلاب العلم بعد الأستاذ والمدرسة، لذا فمما يتصل بالحديث عن الوقوف الإسلامية، على التعليم، وعلى المدارس، والمساجد، والمستشفيات -وهي المؤسسات التي ساهمت في تنمية المجتمع الإسلامي، وتنمية قدرات أفراده، الذين حققوا روائع الإنجاز الحضاري في الإسلام- هو الإيقاف على المكتبات، وعلى دور المعرفة المشابهة لها، إذ إن المؤسسات الوقفية، التي خصصت للمكتبات، قد تركت طابعها المميز العميق، على مسار هذه الحضارة، وعلى نشر المعرفة المتخصصة لدى العلماء المسلمين، كما ساهمت هذه الوقوف، على نشر الكتاب العربي الإسلامي، على نطاق واسع، في وقت كانت فيه الطباعة غير معروفة لبني الإنسان، وغير موجودة في أي مجتمع، إذ كانت عملية استنساخ الكتب، تجري على أيدي نساخ يدويين، تخصصوا في هذا العمل في ديار

---

(١) الدور الاجتمعاي للوقف/ عبد الملك أحمد السيد ص. ٢٣٦.

(٢) المصدر أعلاه عن الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي.

(٣) سيكون النقل في هذا الموضوع (المكتبات) من كتاب الحركة العلمية في العراق، للدكتور مريزن سعيد مريزن عسيري من ص. ١٨٠ - ٢٠٢ وسوف أذكر بعض مراجعه في الهامش للفائدة، والله أعلم. وانظر المكتبات الملحقة بالمدارس في بحث د/ عبد الملك أحمد السيد / الدور الاجتماعي للوقف ص.٢٤١ - ٢٤٩.

الإسلام، غير أن الإنفاق عليهم، وعلى معيشتهم، واحتياجاتهم، أو على تمرينهم، كان في الغالب مما يرد من الميسورين، ويعتمد على أموال الوقف التي خصصت لدور العلم، وخزائن الكتب... وفي الكثير من الأزمنة، نجد أن الوقف هو المصدر الرئيسي، والمكتبات هي الزاد الذي يتزودون منه، في أسفارهم وإقامتهم، بل لعل من الأعمال الحسنة التي كان يقوم بها بعض العلماء والخلفاء وقف الكتب رجاء الأجر، وللمحافظة عليها من التلف، أو انتقال الملكية بعد الموت، فكانوا يفضلون وقفها ؛ ليستفيد منها طلبة العلم، فيذكر ابن العماد في الشذرات: أن محمد بن ناصر بن علي البغدادي، محدث العراق، المتوفى سنة (٥٥٠هـ ١١٥٥م) أوقف كتبه قبل وفاته[١].

ويذكر ابن الجوزي: أن عبد الله بن المبارك، المتوفى سنة (٥٠٩هـ) باع ملكا له، واشترى بثمنه كتاب الفنون لابن عقيل، وكتاب الفصول، ووقفهما على المسلمين[٢].

وذكر ابن الجوزي في أحداث عام (٤٨٣ هـ ١٠٩٠م) عن احتراق مدينة البصرة، التي كان من نتائجه، احتراق مكتبة عامرة، كانت قد أنشئت خلال القرن الرابع الهجري، ويعلق ابن الأثير على هذه الحادثة فيقول: وفي جملة ما أحرقوا داران للكتب: إحداهما، وقفت قبل أيام عضد الدولة بن بويه... والأخرى، وقفها الوزير أبو منصور شاه مردان، وكان بها نفائس الكتب وأعيانها[٣].

وتتحدث المصادر المعتمدة، عن المكتبة التي أنشأها سابور بن أردشير في الكرخ ببغداد، عام (٣٨١هـ ٩٩١م) والتي كانت موئل العلماء والباحثين، الذين كانوا يترددون عليها، حتى احترقت في عام (٤٥١هـ ١٠٥٩م).

وقد ذكر ابن الجوزي في حوادث هذه السنة: أنه قد (احترقت بغداد - الكرخ - وغيره وبين السورين، واحترقت فيه خزانة الكتب، التي أوقفها الوزير، ونهبت بعض كتبها، وجاء عميد الملك، فاختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف وأربعمائة مجلد، من أصناف العلوم، منها مائتا مصحف بخط ابن مقلة، وكان العامة قد نهبوا بعضها لما وقع الحريق[٤].

---

(١) الشذرات لابن العماد.٤/ ١٥٥

(٢) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١٨٣طبقات الشافعية لابن السبكي ٥/ ١٢١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٣٨..

(٦) المنتظم لابن الجوزي ٨/ ٢٣٨.

ويذكر ابن العماد[1] أنه في سنة ٦٠٣هـ توفي جمال الدولة واقف الإقباليتين إقبال الخادم بالقدس،[2] بعد أن أوقف داره بدمشق مدرستين: شافعية وحنفية، ووقف عليها مواضع: الثلثان على الشافعية، والثلث على الحنفية.

ثم كانت الطامة الكبرى، والمصيبة الكالحة، عندما دخل المغول بغداد، عام (٦٥٦هـ ـــ ١٢٥٨م) واستباحوها، وقضوا على الكثير من المعالم الحضارية، والمآثر الإسلامية والتراث، ومن ذلك عشرات الآلاف من كتب خزائن المكتبات العامة والخاصة.

وينعكس مدى اعتزاز الإسلام والمسلمين بالعلم والعلماء، فيما خلدته المصادر من معلومات مفصلة، عن خزانات الكتب، التي أولاها المسئولون عن الإدارة الإسلامية، وكذلك مختلف أبناء الأمة، من اهتمام ورعاية، في سبيل تيسير المعرفة، عن طريق إنشاء دور للكتب، التي أصبحت شائعة، حتى ليندر أن تخلو مدرسة، أو مسجد جامع، أو مستشفى، أو غير ذلك، من معاهد العلم، دون أن تجد مكتبة عامرة ملحقة بها، هذا بجانب الخزائن الخاصة، التي يؤسسها الخلفاء، والأمراء، والوزراء، وكبار المسئولين، والعلماء، والتي يكون الإنفاق عليها من حسابهم الخاص، وكان يقوم على هذه المكتبات، مشرفون، وخزنة، وخدم، للقيام بمختلف الأعمال اللازمة لإدارتها، والإشراف عليها، والإفادة من خدماتها المختلفة، وكان الكثير منها مزودا بالورق والحبر، في قاعات رتبت، لتصبح مواضع للمطالعة، وفي أحيان أخرى للنسخ والتعليم، ولم تخل مكتبة من هذه المكتبات، من فهارس، يرجع إليها، لتسهيل طلب واستخراج، أو استعمال مجموعاتها، من الكتب المخزونة فيها، وكانت الفهارس عادة غاية في التنظيم، يشرف على إعدادها وتطويرها، خزنة المكتبة ومديروها[3]، ومما يحسن ذكره، هنا أنه كان لخزانة المكتبة النظامية، فهرس شامل دقيق، في ثبت الكتب الموقوفة، في المدرسة النظامية، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد[4] وكان لهذه الخزانة النفيسة، خزنة ومشرفون يتولون أمرها، والنظر في

---

(١) الشذرات ٥/ ٩.

(٢) لم يذكر الأخرى.

(٣) انظر الحياة العلمية في بغداد د/ مريزن عسيري ص.١٩٣ – ١٩٣. مختصرأخبار الخلفاء لابن الساعي ص.١٢٧. وتأريخ ابن خلدون ٥٣٧/٣. والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥١/٧.

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي ص. ٢٦٦ – ٣٦٧.

شئونها، ولهم إدرارات خصصت لهم من وقوف المدرسة[1].

ويذكر القفطي في كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء (هذا الكتاب لابنه علي بن يوسف القفطي المتوفى سنة (٦٤٦هـ) أن الخليفة الناصر لدين الله العباسي، كان له خزانة كتب جليلة، أوقف جزء منها، على خزانة دار المسناة (المسناة: منطقة ببغداد معروفة قرب النهر، وتسمى عند العامة المسناية، وبها نزل الملك فيصل الأول أوائل هذا القرن، وبها كانت محكمة المهداوي، وتسمى الآن قصر المسناية) التي استحدثها الخليفة الناصر، و(على) خزانة الرباط الخاتوني، و(على)خزانة المدرسة النظامية.[2]

ومن ذلك دار كتب الوزير ابن شاه مردان بالبصرة، التي أوقفها على طلبة العلم[3].

أما الوزير مؤيد الدين بن القصاب فقد " نشأ مشتغلا بالعلوم والآداب، وبرع في علوم المصرفين، كالحساب ومعرفة المساحات والمقاسات، ثم تبصر بأسباب الوزارة " وقد أنشأ خزانة كتب في درب الخياطين ببغداد[4].

وهناك خزائن الكتب العامة، وتشتمل على الكثير من الكتب الموقوفة على المدارس، والمساجد، والأربطة، ولا شك أن خزائن المدارس، خزائن عامة، فقد كان الطلاب، والعلماء، والأساتذة، يرتادونها، ويستفيدون من خدماتها، ومن المعروف أن خزانة المدرسة النظامية، قد حوت كل نادر، وكل نفيس، في كل فن من المؤلفات، لا سيما وأن هذه الخزانة، قد أوقف عليها - إضافة إلى محتوياتها الأصلية - الكثير من الكتب والمكتبات، فالخليفة الناصر أوقف عليها من خزانته الخاصة، قال ابن الأثير في حوادث عام ٥٨٩هـ " وفيها أمر الخليفة الناصر لدين الله، بعمارة خزانة الكتب النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة، ألوفا لا يوجد مثلها "[5].

ويذكر السبكي في ترجمته لعبد السلام بن بندار القزويني، المتوفى سنة ٤٨٨هـ، أنه أهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء، لم يكن لأحد مثلها، غريب الحديث لإبراهيم الحربي، في عشر مجلدات، فوقفه نظام

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ٦٦/٩.

(٢) أخبار العلماء للقفطي ص. ١٧٧.

(٣) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١٥٣ الكامل لأثير ٨/ ١٥٣.

(٤) الحياة العلمية في بغداد د/ مريزن عسيري نقلا عن خزائن الكتب القديمة في بغداد كوركيس عواد ص. ١٨٣.

(٥) الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٢٩.عسيري

الملك بدار الكتب ببغداد[1].

كما أوقف المؤرخ، محب الدين بن النجار، المتوفى سنة (٦٤٣هـ) خزانتين من الكتب بالنظامية، تساوي ألف دينار، فأمضى ذلك الخليفة المعتصم[2]

وذكر ابن الجوزي: أن هذه الخزانة كانت تحتوي على ستة آلاف مجلد، في مختلف الفنون، حينما كان يرتادها[3]

أما خزانة كتب مدرسة أبي حنيفة ﷺ، التي أنشأها المستوفي شرف الملك، أبو منصور، العميد الخوارزمي، والتي افتتحت عام (٤٥٩هـ)، فقد احتوت على نفائس الكتب والمصنفات التي أوقفت على طلبة العلم،[4].

ولأهمية هذه المكتبة، فقد ذكر ابن الساعي البغدادي، نصا يشير إلى تولي ضياء الدين أبي الفضل، أحمد بن مسعود التركستاني، أمر الخزانة قال فيه:"وليثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها، معارضا ذلك بفهرسته، متطلبا ماعساه قد شذ منها، وليأمر خازنها بعد استصلاحه، بمراعاتها ونفضها، في كل وقت، وأن لا يخرج منها شيئا، إلا إلى ذي أمانة، مستظهرا بالرهن على ذلك[5]

ويظهر أنه قد أوقف على هذه الخزانة الكثير من الكتب، خلال فترات مختلفة، إذ تذكر المصادر: أنه في إحدى المناسبات، أوقف عليها مجموعة كبيرة من الكتب: منها تفسير كبير يقع في ثلاثمائة مجلد، لأبي يوسف عبد السلام بن محمد بن بندار القزويني، المتوفى سنة (٤٨٨هـ) أوقفه مؤلفه على طلبة العلم بهذه الخزانة[6] كما أن ابن جزلة الطبيب البغدادي المتوفى سنة (٤٩٣هـ) لما مرض مرض الموت، أوقف جميع محتويات مكتبته، على خزانة مدرسة مشهد الإمام أبي حنيفة[7] ومنها خزانة كتب الوقف

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٢٣٠.عسيري١٩٨

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ١٦٦.

(٣) صيد الخاطر لابن الجوزي ٣٦٦ – ٣٦٧.

(٤) أول مدرسة أنشئت في العراق مدرسة أبي حنيفة مصطفى جواد عن مجلة المعلم الجديد ٦/ ٣٨. وصيد الخاطر لابن الجوزي ٣٦٧.

(٥) الجامع المختصر لابن الساعي ٩/٢٣٦.

(٦) الشذرات لابن العماد٣/ ٢٨٥.

(٧) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ١١٩.

بمسجد الزيدي ببغداد[1]، والتي وقفها الشريف أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الزيدي المتوفى سنة (٥٧٥هـ)، وكان أحد الأعلام العلماء، ويذكر سبط ابن الجوزي: أنه اشترى دارا بدرب دينار الصغير ببغداد، وبناها مسجدا، واشترى كتبا، ووقفها على المسجد، لينتفع الناس بها[2]، كما أوقف أبو الخير صبيح بن عبد الله الحبشي المتوفى سنة (٥٨٤هـ) كتبا كثيرة بمسجد الزيدي، وكذلك أبو الخطاب العلمي عمر بن محمد بن عبد الله الدمشقي، الذي قدم بغداد عام٥٥٩هـ فقد عاهد الشريف الزيدي، على وقف كتبه بمسجد الزيدي، فأرسلها بعد(قبل) وفاته، عام ٥٧٤هـ، أما ياقوت الحموي، فقد كان يملك مكتبة ثمينة، احتوت على العديد من النفائس، أوقفها كذلك على مسجد الزيدي بدرب دينار[3].

وكان الخطيب البغدادي الحافظ أحمد بن علي، يمتلك مكتبة ضخمة أوقفها على المسلمين[4].

وكذلك أبو الحسن محمد بن هلال الصابي، الملقب بغرس النعمة، المتوفى سنة (٤٨٠هـ) فقد ابتنى بشارع ابن أبي عوف دار كتب، وأوقف فيها نحوا من أربعمائة مجلد، في فنون العلوم، ورتب بها خازنا، يقال له ابن الأقساسي العلمي،وتكرر إليها العلماء سنين كثيرة[5] أما ابن كثير فقد ذكر أن عدد الكتب التي أوقفها غرس النعمة، أربعة آلاف مجلد[6].

وكذلك المؤرخ أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي المغربي الأندلسي المتوفى سنة (٤٨٨هـ)، فقد كانت له خزانة كتب أوقفها على طلبة العلم[7]

ويمكن أن نشير إلى المؤرخ الطبيب المشهور بابن المارستانية، أبي بكر مجد الدين عبيد الله بن علي بن حمزة البغدادي المتوفى سنة (٥٩٩هـ) الذي كان "قد قوي جاهه وبنى دارا بدرب الشاكرية،

---

(١) معروف ببغداد ويسمى بمسجد القبلانية وهو داخل السوق التجاري ببغداد، ويسمى درب دينار الصغير الآن بشارع المأمون، وهو في الرصافة.

(٢) مرآة الجنان لسبط ابن الجوزي ٨/٢٢٧,و٨/ ٣٥٦

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٦/ ١٢٧.

(٤) معجم البلدان ياقوت الحموي ١/ ٢٥٩.

(٥) المنتظم ٩/ ٤٢ومجمع الآداب لابن الفوطي ٢/ ١١٦٣.

(٦) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٣١٦.

(٧) المنتظم لابن الجوزي ٩/ ٩٦.

وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب، أوقفها على طلاب العلم"[1] ويذكر ابن جبير في رحلته إلى مصر، وبعد أن اطلع على أحوال مكتبتها، ودور العلم فيها، وعاش في البعض منها، واستفاد من أموالها الموقوفة، ما يلي:

ومن مناقب هذا البلد ومفاخره، (أي مصر) أن الأماكن في هذه المكتبات قد خصصت لأهل العلم فيهم، فهم يفدون من أقطار نائية، فيلقى كل واحد منهم مأوى يأوي إليه، ومالا يصلح أحواله جميعا، وبلغ من عناية السلطان بهؤلاء الذين يفدون للاستفادة العلمية، أنه أمر بتعيين حمامات يستحمون بها، وخصص لهم مستشفى لعلاج من مرض منهم، وخصص لهم أطباء يزورونهم، وهم في مجالسهم العلمية، وخصص لهم الخدم لقضاء حاجاتهم الأخرى[2].

ومن المكتبات التي لعبت دورا حضاريا مهما في التأريخ الإسلامي، هي المكتبة التي بناها وأوقفها بنو عمار في طرابلس بالشام، وكانت آية في السعة والضخامة، إذ كان عدد النساخين فيها بلغ ١٨٠ ناسخا، يتناوبون العمل ليل نهار، بحيث لا ينقطع النسخ فيها، ويقال إنها حوت مليون كتاب، على أرجح الأقوال.

خدمة الأوقاف للتعليم والثقافة:

مما لاشك فيه أن هذه المساجد وهذه المدارس والمكتبات ما كانت لتصمد مع الزمن وعواديه لولا جرايات الأوقاف المتصلة، التي تجري على مدرسيها وعلى طلابها، ولذلك فإن الكثير من دور العلم خربت لما لم يكن لها أوقاف، أو كانت لها أوقاف ولكن لم يقم الناظر بالأمر على ما يرام، فقد ذكر المقريزي في خططه أن هناك عددا من المدارس تم إنشاؤها وتأسيسها ولكنها عجزت عن أن تزاول أعمالها التعليمية لعدم وجود أوقاف ينفق عليها من ريعها وعوائدها[3]، ويقول عن المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون (وقد أحاط بها الخراب، ولولا ما يتحصل منها الفقهاء لدثرت)[4].

وبين أن المدرسة الناصرية ثبتت على عوادي الزمن لوجود الأوقاف فقال (لولا ما يتناوله الفقهاء

---

(١) المختصر المحتاج إليه للذهبي ٢/ ١٨٧.

(٢) البر والمواساة في المجتمع الإسلامي، اسامة عاتوتيص.٦١.

(٣) الخطط المقريزية للمقريزي ٢/ ٣٧٤.

(٤) الخطط المقريزية ٢/ ٢٦٢

من المعلوم لخربت)[1].

وكذلك كانت حال المدرسة الصباحية البهائية، حيث انهارت بعد وفاة من كان يرعاها ويهتم بهـا وما ذلك إلا لأن الأوقاف التي كانت عليها، قد أخذت و لم تؤد كما كانت تؤدى سابقا، فتعطلـت واندثرت بعد أن كانت من أعظم المدارس وأجلها كما يقول المقريزي[2].

ويذكر المقريزي أن جامع آن سنقرالذي أنشأه هذا المملوكي وأنشأ فيه مكتبا للأيتام، وجعل فيـه ماء للشاربين، وجعل فيه أيضا دروسا للفقهاء، كان هذا المسجد يؤدي دوره على أفضل وجه، ولكـن لما حدثت الفتنة في الشام، وتوقفت الأوقاف التي كان قد أوقفها عليها، تعطـل كـل مـن الجـامع والمدرسة، وتوقفت كل الأنشطة التي كانت موجودة فيه و لم يبق إلا الصلاة في الجامع[3].

وعلى خلاف ذلك يذكر الإمام السيوطي أن المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الديـن الأيوبي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة هـ، كانت عامرة، وكان ينفق عليها مما كان لها من أوقـاف، وبقي المشايخ يتناوبون على التدريس فيها حتى بعد سنة أربع وأربعين وثمانمائة بكثير[4].

وذكر المدرسة الكاملية وهي دار الحديث، وقبلها دار الحديث التي بالشيخونية بناها الملك العـادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، ثم بنى الكامل هذه الدار سنة إحدى وعشرين وستمائة، ثم ذكـر من تولى بها التدريس حتى ذكر أن آخرهم كان الشيخ سراج الدين بن الملقن المتوفى سنة (٨٠٤هـ).

وكل ذلك بفضل الله ثم بفضل الأوقاف التي أرصدت لهذه المؤسسات.

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٣٦٨.

(٢) المدر نفسه ٢/ ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٣٠٩.

(٤) حسن المحاضرة في تأريخ مصر والقاهرة للإمام السيوطي ٢/ ٢٥٧-٢٥٩.